الدرس السادس

بسم الله الرحمـن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، والعاقبة للمتقين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين .

أما بعد ..

الحديث الثالث

عن أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » رواه البخاري ومسلم

الشرح..

هذا الحديث الثالث من أحاديث الأربعين للإمام النووي رحمه الله وهو من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « بُنِيَ الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وحج البيت وصوم رمضان » وهو قد جمع عليه الصلاة والسلام في هذا الحديث مباني الإسلام ، والمراد بمباني الإسلام أي ما يُبنى عليه الإسلام ، وفي الحديث تشبيه للإسلام بالبناء ، ومن المعلوم أن البناء يحتاج إلى عماد يقوم عليه كما قال القائل :

والبيت لا يُبتنى إلا بأعمدة ولا عماد إذا لم تُرسى أوتاد

فالبيت لا يقوم إلا على عماد ، وهذه المباني الخمس المذكورة في هذا الحديث هي للإسلام بمثابة العماد للبناء، بمثابة الأساس للبنيان ؛ وبهذا نعلم أن إيراد النووي رحمه الله لهذا الحديث عقب حديث عمر بن الخطاب وفيه قال أخبرني عن الإسلام فذكر هذه الخمس ؛ ذكرُه لحديث ابن عمر عقب هذا الحديث ليس من قبيل التكرار المحض ؛ بل لأن هذا الحديث فيه قدرٌ زائد على ما جاء في حديث عمر ؛ هو التنصيص على أن الإسلام بُنِيَ على هذه الخمس ، وأنها للإسلام بمثابة العماد للبنيان .

وهذه الخمس المذكورة في الحديث هي فرائض لهذا الدين ، وأسس لابد منها ، وواجب على

كل مسلم أن يحافظ عليها أشد المحافظة ، وهذه الفرائض الخمس إذا تأملها المسلم يجد أنها دالة على يسر هذا الدين كما قال عليه الصلاة والسلام « إن هذا الدين يسر » دالة على سماحته فليس فيها عنت ولا مشقة على العباد ؛ بل هي أعمال يسيرة مقتطعة من زمن طويل يعيشه العبد و يحياه .

• الصلوات الخمس المفروضة لا تجب على المسلم في اليوم والليلة إلا خمس مرات ، وفي الحديث « صلِّ قائماً فإن لم تستطع فقاعداً فإن لم تستطع فعلى جنب » .

• الزكاة لا تجب على كل مسلم ؛ وإنما هي واجبة على الأغنياء من المسلمين ، الذين عندهم النصاب الزكوي ، الذين عندهم القدر من المال الذي تجب فيه الزكاة ، وهي صدقة تؤخذ من الأغنياء وترد على الفقراء ، وفيها نماء للمال وبركة للمزكي وطهرة له .

• الصيام لا يجب في العام إلا شهراً واحداً ؛ يصوم في نهاره عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات تقرباً لله جل وعلا ، وفيه تمرين للنفس على الصبر وعلى الإخلاص وعلى حسن الإقبال على الله جل وعلا ، وعلى الانكفاف عن المحرمات .

• والحج فريضة لا تجب في العمر إلا مرة واحدة كما قال عليه الصلاة والسلام «الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » ؛ فهذا يدل على يسر هذا الدين وسماحته وأنه ليس في العنت والمشقة على العباد .

قال الشيخ عبد المحسن العباد حفظه الله تعالى :

[قوله « بني الإسلام على خمس» فيه بيان عظم شأن هذه الخمس ، وأن الإسلام مبنيٌ عليها ، وهو تشبيه معنوي بالبناء الحسي ، وكما أن البنيان الحسي لا يقوم إلا على أعمدته ؛ فكذلك الإسلام إنما يقوم على هذه الخمس ، والاقتصار على هذه الخمس بكونها الأساس لغيرها ، وما سواها فإنه يكون تابعاً لها] .

الشرح..

هذه الأمور الخمس جعلها النبي صلى الله عليه وسلم للإسلام مباني ؛ قال « بني الإسلام على خمس» والبناء أمر حسي ومشاهد .

وقد شبه النبي عليه الصلاة والسلام هذه الأمور بالبناء المشاهد ، وهذا من باب ضرب الأمثال ، والأمثال من فائدتها أنها تجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المحسوس المشاهد الذي يراه الإنسان بعينه ؛

كأنه يُقال في هذا المقام إذا أردت أن تدرك مكانة هذه الأمور الخمس من الإسلام فانظر إلى أي بناء قائم على أعمدة وأسس وتذكر في مكانة هذه الأسس من البناء ، وأن زوال شيء من أسس البناء يؤدي إلى انهياره .

فالأمثال ضربها مفيد جداً لأنه يجعل الأمر المعنوي بمثابة الأمر المشاهد المحسوس ، وكثيراً ما يأتي ضرب الأمثال في القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام في مقام التوضيح والبيان .

واقتصر على هذه الخمس وجعلها مباني للإسلام لكونها الأساس لغيرها ، ولكونها أمهات الطاعات والعبادات المتقرب بها إلى الله سبحانه وتعالى ، وسائر العبادات راجعة إلى هذه العبادات فهي لغيرها من العبادات أساس والعبادات راجعة إلى هذه الخمس المذكورة في الحديث .

[ثانيًا : أورد النووي هذا الحديث بعد حديث جبريل ، وهو مشتمل على هذه الخمس لما اشتمل عليه هذا الحديث من بيان أهمية هذه الخمس ، وأنها الأساس الذي بُنِيَ عليه الإسلام ؛ ففيه معنىً زائد على ما جاء في حديث جبريل] .

الشرح..

إيراد حديث بن عمر رضي الله عنهما عقب حديث جبريل ليس من التكرار المحض . مع أن الخمس التي ذُكرت هنا ذُكرت هناك . ؛ لكن فيه قدرٌ زائد وهو قوله عليه الصلاة والسلام في أول الحديث « بني الإسلام على خمس» ؛ وفي هذا بيان لمكانة هذه الخمس من الدين ، وأنها للدين بمثابة الأساس للبنيان .

[ثالثاً هذه الأركان الخمسة التي بني عليها الإسلام أولها الشهادتان؛ وهما أس الأسس ، وبقية الأركان وغيرها تابع لها ، فلا تنفع هذه الأركان وغيرها من الأعمال إذا لم تكن مبنية على هاتين الشهادتين ، وهما متلازمتان؛ لابد من شهادة أن محمداً رسول الله مع شهادة أن لا إله إلا الله ، ومقتضى شهادة أن لا إله إلا الله أن لا يُعبد إلا الله ، ومقتضى شهادة أن محمداً رسول الله أن تكون العبادة وفقاً لما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذان أصلان لا بد منهما في قبول أي عمل يعمله الإنسان ؛ فلا بد من تجريد الإخلاص لله وحده ، ولابد من تجريد

المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم] .

الشرح..

تصدير النبي صلى الله عليه وسلم هذا الحديث المشتمل على مباني الإسلام بالشهادتين دليلٌ على مكانة الشهادتين من الإسلام وأنها أعظم الإسلام وأجله على الإطلاق شهادة أن لا إله إلا اله و أن محمداً رسول الله ؛ ولهذا فإن بقية أركان الإسلام وأمور الإسلام الأخرى كلها راجعة للشهادتين ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله تعني عبادة الله وإفراده تبارك وتعالى وحده بالعبادة وعدم الإشراك به ، وشهادة أن محمداً رسول الله تعني تجريده بالمتابعة وطاعته وامتثال ما يأمر به عليه الصلاة والسلام ؛ فرجع الدين كله إلى الشهادتين .

" والشهادتان متلازمتان" ؛ أي لا تنفك إحداهما عن الأخرى ؛ فلا تُقبل شهادة أن لا إله إلا الله من قائلها ولا تنفعه عند الله إلا إذا ضم إليها شهادة أن محمداً رسول الله ؛ فلا يكون قبول لإحداهما إلا بالأخرى والله جل وعلا لا يقبل من قائل لا إله إلا الله إلا إذا ضم إليها محمدٌ رسول الله صلى الله وسلم عليه .

والشهادتان دالتان على الإخلاص للمعبود والمتابعة للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لأن لا إله إلا الله معناها أن لا نعبد إلا الله وأن نخلص له الدين وأن نفرده وحده بالعبادة ،

وهي قائمة على ركنين النفي والإثبات ؛ النفي العام في أولها نفي العبودية عن كل ما سوى الله ، والإثبات الخاص في آخرها للعبودية بكل معانيها لله وحده ؛ فلا إله إلا الله تعني أن لا يسأل إلا الله ولا يُدعى إلا الله ولا يستغاث إلا بالله ولا يُذبح شيء إلا لله ، ولا يصرف شيءٌ من العبادة إلا لله تبارك وتعالى ، فكما أنه تفرد وحده بالخلق والإيجاد والإنعام والإمداد ؛ فيجب أن يُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة ؛ ولهذا قال تعالى ﴿ يَا أَيُّها النَّاسُ اعبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذي خَلَقكم والَّذينَ مِن قَبْلِكُم لَعَلَّكُم تَتَّقون ۝الذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ فِرَاشًا والسَّماءَ بِنَاءً وأَنزلَ من السَّماءِ ماءً فَأخرجَ بِهِ منَ الثَّمراتِ رِزقًا لَّكم فَلا تَجعَلُوا لِلهِ أَندَادًا وأنتُم تَعلَمون ﴾ أي لا تجعلوا لله شركاء في العبادة وأنتم تعلمون أنه لا خالق لكم إلا الله وحده تفرد بخلقكم ورزقكم وإمدادكم ؛ لا شريك له في ذلك ؛ فليُفرد وحده تبارك وتعالى بالعبادة.

وشهادة أن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم تعني طاعته عليه الصلاة والسلام فيما أمر ، والانتهاء عما نهى عنه وزجر وتصديقه فيما أخبر وأن لا يعبد الله إلا بما شرع .

[رابعاً: قال الحافظ في الفتح : فإن قيل لم يذكر الإيمان بالأنبياء والملائكة وغير ذلك مما تضمنه سؤال جبريل عليه السلام أُجيب بأن المراد بالشهادة تصديق الرسول فيما جاء به ؛ فيستلزم جميع ما ذكر من المعتقدات . وقال الإسماعيلي ما محصله : هو من باب تسمية الشيء ببعضه كما تقول قرأت الحمد وتريد به جميع الفاتحة ، وكذلك تقول أيضاً مثلا: شهدت برسالة محمد وتريد جميع ما ذُكر ، والله أعلم] .

الشرح..

هذا الحديث ذُكر فيه هذه الأمور الخمس ؛ قد يقول قائل: لم تُذكر في هذا الحديث أصول الإيمان الستة ، وقد علمنا أن الأعمال الظاهرة ليست مقبولة من العبد إلا إذا قامت على تلك الأصول و لم تُذكر في هذا الحديث ؛ والجواب على ذلك أن هذه الأصول داخلة في الشهادتين ـ شهادة أن لا إله إلا الله المتضمنة للإقرار لله تبارك وتعالى بالوحدانية في ربوبيته وألوهيته وأسماءه وصفاته ـ مشتملة على ذلك ، وهي تدل على توحيد العبادة مطابقة وتدل على بقية أنواع التوحيد تضمناً .

وشهادة أن محمداً رسول الله من مقتضياتها تصديقه فيما أخبر صلوات الله وسلامه عليه ، وأصول الإيمان هي أعظم ما أخبر صلى الله عليه وسلم ؛ فمن لم يصدق بهذه الأصول أو ببعضها فشهادته بأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم منخرمة وليست بصحيحة ؛ لأن من مقتضيات الشهادة له بأنه رسول الله أن يُصدَّق صلوات الله وسلامه عليه في أخباره ؛ ولهذا عرفنا فيما سبق أن المسلم هو من جاء بشعائر وشرائع الإسلام الظاهرة وعنده قدْر من الإيمان يصحح إسلامه ، والمراد بالقدْر من الإيمان الذي يصحح الإسلام هو الجزم بهذه الأمور الستة دون تردد أو تشكيك ـ أن يكون عنده إيمان جازم ـ ، أما إن شك وتردد فالإيمان ينتفي لأن الإيمان لابد فيه من انتفاء الشك كما قال سبحانه وتعالى ﴿ إِنَّمَا المؤمِنُونَ الَّذينَ آمَنُوا بِاللهِ ورَسُولِهِ ثُمَّ لَمَ يَرْتَابُوا ﴾ وقال عليه الصلاة والسلام :« أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله لا يلقى اللهَ بهما عبدٌ غيرُ شاك فيهما إلا أدخله الله الجنة » قال غير شاكٍ فيهما ؛ فأمور الإيمان لابد فيها من اليقين وهو انتفاء الشك ، وهذا قدْر لا يُقبل عملٌ من الأعمال إلا به ؛ فإذا وُجد شكٌ أو ريب أو تردد أو عدم جزم بالإيمان أو بأصول الإيمان ؛ فإن الأعمال تكون باطلة ولو كثرت ؛ كما قال سبحانه وتعالى ﴿ ومَن يَكْفُر بِالإِيمانِ فَقَد حَبِطَ عَمَلُه ﴾، وكما قال جل وعلا ﴿ ومَا مَنَعَهُم أن تُقبَلَ منهُم نَفَقاتُهم إلا أَنَّهُم كَفَرُوا باللهِ وبرَسُوله ﴾، وجاء

في آيات كثيرة ذكرُ الإيمان أساساً لقبول الأعمال ؛ كقوله جل وعلا ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا مِن ذَكَرٍ أَو أُنثَى وهوَ مُؤمِن ﴾، وكما قال تعالى﴿ ومَن أرَادَ الآخِرَةَ وسَعى لَها سَعيَها وَهُو مُؤمِن ﴾ ؛ وهذا يفيد أن أعمال الإسلام الظاهرة لا تقبل عند الله سبحانه وتعالى إلا إذا كانت قائمة على اعتقاد جازم صحيح قائم في قلب المسلم .

[خامساً : أهم أركان الإسلام الخمسة بعد الشهادتين الصلاة وقد وصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها عمود الإسلام كما في حديث وصيته لمعاذ بن جبل وهو الحديث التاسع والعشرون من هذه الأربعين ، وأخبر أنها آخر ما يفقد من الدين وأول ما يحاسب العبد يوم القيامة . انظر السلسلة الصحيحة للألباني . ، وأن فيها التمييز بين المسلم والكافر . رواه مسلم

وإقامتها تكون على حالتين : إحداهما واجبة وهو أداءها على أقل ما يحصل به فعل الواجب وتبرأ به الذمة ، ومستحبة وهو تكميلها وتتميمها بالإتيان بكل ما هو مستحب فيها] .

الشرح..

في هذا الحديث دلالة على مكانة الصلاة من الدين ، وأنها أعظم أركانه بعد الشهادتين ، الشهادتين هما أعظم الدين وأجلُّه على الإطلاق ويلي ذلك الصلاة التي هي عماد الدين وسيأتي معنا حديث عدّ فيه صلوات الله وسلامه عليه الصلاة عماد الدِّين قال: «وعموده الصلاة » فالصلاة للدين بمثابة العمود الذي يكون في وسط الخيمة ، ومن المعلوم أن الخيمة إذا نُزع منها عمودها تسقط فلا تقوم الخيمة إلا على عماد .

والإسلام لا يقوم إلا على عماد ، قد قال عليه الصلاة والسلام «وعموده الصلاة » ومن ضيع الصلاة فلا حظ له في الإسلام ، ومن أراد أن يعرف وزن الإسلام عنده فلينظر إلى حظه من الصلاة ؛ فإن حافظ عليها ساقته إلى المحافظة على عموم الطاعة واجتناب المحرمات؛ فالصلاة عون ﴿ وَاستَعِينوا بِالصَّبرِ والصلاة ﴾، وإن ضيعها فهو لما سواها أضيع ، إن ضيع عمود الدين فهو لما سواها أضيع و قد جاء في الحديث أن الصلاة ذُكرت عند رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً فقال : « من حافظ عليها كانت له نوراً وبرهاناً ونجاة يوم القيامة » ؛ نوراً : أي ضياءً ، وبرهاناً على إيمانه ، ونجاةً له يوم القيامة من عذاب الله جل وعلا ، « ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نوراً ولا برهاناً ولا نجاةً يوم القيامة » ، وجاء عنه عليه الصلاة والسلام ما يدل على كفر تارك الصلاة ، وأنها التمييز بين

المسلم والكافر ؛ قال عليه الصلاة والسلام « العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر » ؛ ولهذا لما يُسأل أهلُ سقر﴿ مَا سَلَكَكُم فِي سَقَر ۝ قَالوا لم نكُ منَ المصَلِّين ﴾، وقال الله سبحانه وتعالى عن الكافر ﴿ فلا صدَّقَ وَلا صلَّى ﴾ ، فترك الصلاة كفر بالله جل وعلا ، وهي للدين بمثابة العماد للبنيان وهي أول ما يُحاسب العبد يوم القيامة ؛ وهذا دليل على المكانة العظمى والمنزلة العلية للصلاة من دين الله تبارك وتعالى .

[سادساً : الزكاة : الزكاة هي قرينة الصلاة في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم كما قال الله عز وجل ﴿ فَإِن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاة فَخَلُّوا سَبيلَهم ﴾ ، وقال ﴿ فَإِن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاة فإِخْوانُكم فِي الدِّين ﴾ ، وقال ﴿ وَمَا أُمِروا إِلا لِيَعبُدُوا اللهَ مُخلِصِينَ لهُ الدِّينَ حُنَفاءَ وَيُقِيموا الصَلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ وذَلِكَ دِينُ القيِّمة ﴾ . وهي عبادة مالية ، نفعها متعدٍ ، وقد أوجبها الله في أموال الأغنياء على وجهٍ ينفع الفقير ولا يضر الغني ؛ لأنها شيءٌ يسير من مال كثير] .

الشرح..

الزكاة أحد أركان الإسلام ، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله ؛ فكثيراً ما تأتي مقرونة بالصلاة مضمومة إليها ؛ يأتي الأمر بالصلاة ويُضم إليه الأمر بالزكاة ؛ مثل هذه الآيات التي مرت ﴿ فَإِن تَابُوا وأَقَامُوا الصَّلاةَ وآتَوا الزَّكاة ﴾ ﴿ وَيُقِيموا الصَلاةَ ويُؤتُوا الزَّكاةَ ﴾

وعرفنا مكانة الصلاة من الدين . والزكاة عبادة مالية مرتبطة بالمال وجوداً وعدماً ؛ فإذا وُجد المال وجدت ، وإذا عُدم المال عُدمت ؛ ولهذا ليست الزكاة مطلوبة من كل مسلم ؛ بل هي عبادة مطلوبة من الأغنياء الذين آتاهم الله سبحانه وتعالى المال ومنَّ عليهم بالمال.

والزكاة قدر يسير وقليل من المال يؤخذ من الأغنياء ويُرد على الفقراء ؛ ولهذا لما بعث النبي عليه الصلاة والسلام معاذاً إلى اليمن ، وأمره بدعوتهم إلى التوحيد والصلاة ؛ قال «فإن هم أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فتُرد على فقراءِهم ». وسُميت الزكاةُ زكاةً لأن فيها زكاءً للمال ونماءً له ، وفيها تزكية لصاحب المال وتطهير له من الشح والبخل وغير ذلك من الأخلاق الذميمة ، وفيها إعانة له على البذل والعطاء وتفقد المحتاجين والفقراء ومساعدتهم بحيث يكون المجتمع المسلم مترابطاً متعاوناً يعطف أغنياءه على فقراءه ويساعدونهم بما أكرمهم الله سبحانه وتعالى به من مال وبما أمدهم الله سبحانه وتعالى به من رزق .

فالزكاة طاعة مفروضة مالية وهي إنما تجب في حق الأغنياء .

[سابعاً : صوم رمضان ؛ صوم رمضان عبادة بدنية ، وهي سر بين العبد وبين ربه ؛ لا يطلع إلا الله سبحانه وتعالى ، لأن من الناس من يكون في شهر رمضان مفطراً وغيره يظن أنه صائم ، وقد يكون الإنسانُ صائماً في نفل وغيره يظن أنه مفطر ؛ ولهذا ورد في الحديث الصحيح أن الإنسان يجازى بعمله الحسنة بعشرة أمثالها إلى سبع مائة ضعف ؛ قال الله عز وجل إلا الصوم فإنه لي وأنا أجزي به . رواه البخاري ومسلم ؛ أي بغير حساب ، والأعمال كلها لله عز وجل كما قال الله عز وجل ﴿ قُل إنَّ صَلاتي وَنُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العِالَمينَ لا شَريكَ لهُ وبِذلِكَ أُمِرتُ وأنا أوَّلُ المسْلِمين ﴾ ، وإنما خص الصوم في الحديث بأنه لله لما فيه من خفاء هذه العبادة وأنه لا يطلع عليها إلا الله] .

الشرح..

الصوم الذي افترضه الله سبحانه وتعالى على عباده وهو ركن من أركان الإسلام ؛ هو صوم شهر واحد في السنة وهو شهر رمضان المبارك الذي أُنزل فيه القرآن ، والصيام إنما هو في نهار رمضان من طلوع الفجر إلى غروب الشمس ؛ هو إمساك عن الطعام والشراب والجماع وسائر المفطرات تقرباً إلى الله سبحانه وتعالى ، وقد قال عليه الصلاة والسلام « من صام رمضان إيماناً واحتساباً غُفر له ما تقدم من ذنبه » . فالصوم عبادة بدنية ، وهو سر بين العبد وبين الله ؛ لأن الصائم لا يعلم بصومه إلا الله جل وعلا ؛ وإلا واقع الناس قد يصوم الإنسان ويجلس مع إخوانه ولا يشعرون بصيامه ، وقد يُفطر الإنسان في نهار رمضان ويتوهم من يراه أنه صائم ؛ فالصوم سرٌ بين العبد وبين الله .

والصلاة هي عمل يراه الناس وكذلك الحج والزكاة ؛ أما الصيام فهو سر بين العبد وبين ربه ؛ ولهذا جاء في الحديث « الصوم لي وأنا أجزي به » ، مع أن العبادات كلها لله ؛ الصلاة لله ؛ ﴿ قُل إنَّ صَلاتي وَنُسُكي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلهِ رَبِّ العِالَمينَ لا شَريكَ لهُ ﴾ ، والحج لله ؛ ﴿ وَلِلهِ على الناسِ حجُ البَيت﴾ ؛ فالعبادات كلها لله ؛ فما معنى اختصاص الصوم بقول الله سبحانه وتعالى « الصوم لي وأنا أجزي به » ؟ ذلك أن الصوم سر بين العبد وبين الله تبارك وتعالى ؛ وذلك لما في هذه العبادة من الخفاء ولكونها سرٌ بين العبد وبين الله جل وعلا .

والصوم صبر ، والصابر يوَفى أجره بغير حساب ؛ لأن الصائم يصبر على منع نفسه عن

الأمور التي اعتادها وألفها سائر العام وسائر الأوقات ؛ فيتركها ويصبر طالباً ثواب ذلك عند الله ؛ ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : « صيام شهر الصبر وثلاثة أيام من كل شهر يذهبن وحر الصدر » ، يسمى شهر رمضان شهر الصبر لأنه يدرب الإنسان ويعوده على الصبر بأنواعه الثلاثة . الصبر على الطاعة والصبر عن المعصية والصبر على أقدار الله المؤلمة . .

[ثامناً: حج بيت الله الحرام ؛ حج بيت الله الحرام عبادة مالية بدنية ، قد أوجبها الله في العمر مرة واحدة ، وبين النبي فضلها بقوله صلى الله عليه وسلم « من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق ؛ رجع كيوم ولدته أمه » رواه البخاري ومسلم .

وقال صلى الله عليه وسلم « العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما والحج المبرور له جزاءٌ إلا الجنة » . رواه مسلم] .

الشرح..

هذا الركن الخامس من أركان الإسلام وهو حج بيت الله الحرام ، وهو عبادة مالية بدنية ، يشترك في هذه العبادة المال والبدن ؛ فالبدن يعمل وأيضاً يُنفق في هذه العبادة ، وهو لا يجب على العبد في حياته إلا مرة واحدة على المستطيع كما قال عليه الصلاة والسلام « الحج مرة فمن زاد فهو تطوع » وهو لا يجب على العبد في حياته إلا مرة واحدة على المستطيع ، وقال تعالى ﴿ وَلِلهِ على الناسِ حجُ البَيت مَنِ استطاعَ إليهِ سبِيلًا ﴾. والحج فيه ثمار وآثار عظيمة لا يعلمها إلا الله ؛ قد الله سبحانه وتعالى ﴿ وَأَذِّن فِي النَّاسِ بالحجِّ يَأتوكَ رِجالًا وعَلى كُلِّ ضامِرٍ يَأتينَ من كُلِّ فَجٍ عَميق۞ لِيَشهَدُوا منافِعَ لهم ﴾ ؛ فالحج فيه من المنافع والفوائد والآثار ما لا يحصيه إلا الله سبحانه وتعالى ، منافع دينيه ودنيوية . وفي الحج تربية على الإيمان والتوحيد و الاستتابة لله تبارك وتعالى ، ومحافظة على الفرائض والواجبات ، وبعد عن الآثام والمحرمات ﴿ الحجُ أشهُرٌ معلوماتٌ فَمن فَرَضَ فيهنَّ الحجَّ فلا رَفَثَ ولا فُسوقَ ولا جِدال فِي الحجِ وما تَفْعلوا من خيرٍ يعلمْهُ اللهُ وتَزوَّدوا فإنَّ خيرَ الزَّادِ التقوَى واتَّقونِ يا أولي الألباب ﴾ ، والحج يذكر بيوم القيامة ويذكر بالعرض على الله سبحانه وتعالى ، ويذكر بمغادرة الدنيا وترك الأهل والأولاد ، وفيه من المنافع والفوائد والعبر والعظات ما لا يحصى ؛ هو عبادة مفروضة على العبد في عمره كله مرة واحدة ، ويترتب على هذه العبادة من الفوائد غفران الذنوب والعتق من النار والفوز بالجنة « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ، « ومن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه

» ، « ولله عتقاء من النار عشية عرفة » ، جاء من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلعت عليه الشمس أفضل من يوم عرفة ، وإن الله ليدنوا ويباهي بهم ملائكته فيقول عز وجل " ما أراد هؤلاء " »؛ وهذا دليل على أن الله غفر لهم ؛ لأن الله لا يباهي بأهل الذنوب.

فالشاهد أن الحج فيه غفران الذنوب وفيه العتق من النار وفيه الفوز بالجنة « الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة » ؛ فهو طاعة عظيمة وعبادة جليلة يغتبط غاية الاغتباط من أكرمه الله سبحانه وتعالى بها ، وإذا رأيت حب المسلمين في العالم لهذه العبادة وحرصهم عليها ترى من ذلك عجباً ، ولعلك تشاهد في الحجيج أناسٌ طاعنين في السن ، وبعضهم يأتي به ابنه البار يحمله لا يستطيع حراكاً ليؤدي هذه الفريضة العظيمة وليجنِ ثمارها وآثارها العظيمة المباركة ؛ وهذا مما يدل على جمال هذا الدين وعظمته وكماله وعظم آثاره وفوائده .

[تاسعاً: هذا الحديث بهذا اللفظ جاء فيه تقديم الحج على الصوم وهو بهذا اللفظ أورده البخاري في أول كتاب الإيمان من صحيحه ، وبنى عليه ترتيب كتاب الجامع الصحيح ؛ فقدم فيه كتاب الحج على كتاب الصيام ، وقد ورد الحديث في صحيح مسلم بتقديم الصيام على الحج ، وتقديم الحج على الصيام ، وفي الطريق الأولى تصريح بن عمر رضي الله عنهما بأن الذي سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديم الصوم على الحج ، وعلى هذا يكون تقديم الحج على الصوم في بعض الروايات من قبيل تصرف بعض الرواة والرواية بالمعنى ، وسياقه في صحيح مسلم عن بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « بني الإسلام على خمسة على أن يوحد الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصيام رمضان والحج فقال رجل الحج وصيام رمضان قال لا صيام رمضان والحج » هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم] .

الشرح..

هذه الرواية في الحديث بتقديم الحج على الصيام هي رواية جاءت في صحيح البخاري واعتمدها الإمام النووي في كتابه الأربعين ، وقد جاءت روايات بتقديم الصيام على الحج وهو الصحيح ، وابن عمر رضي الله عنهما صح عنه لما روى الحديث أن رجلاً قال له : الحج وصيام رمضان ؟ . يعني الحج هو المقدم . ؛ فقال بن عمر : لا ؛ صيام رمضان والحج هكذا سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالمسموع من الرسول عليه الصلاة والسلام هو تقديم الصيام على الحج ، فيكون ما جاء في هذه الرواية التي قُدم فيها الحج على الصيام من تصرف الرواة ، ومن الرواية

بالمعنى وإلا فالصيام هو المقدم . ومرَّ أيضاً في حديث جبريل قدَّم الصيام ، والصيام فُرض قبل الحج ؛ فالصيام فُرض في السنة الثانية الهجرة ، والحج فُرض في السنة التاسعة من الهجرة ؛ فالصيام مقدم على الحج .

[عاشراً: هذه الأركان الخمسة وردت في الحديث مرتبة حسب أهميتها ؛ وبُدأ فيها بالشهادتين اللتين هما أساسٌ لكل عمل يُتقرب به إلى الله عز وجل ، ثم بالصلاة التي تتكرر في اليوم والليلة خمس مرات ، فهي صلة وثيقة بين العبد وبين ربه ، ثم الزكاة التي تجب في المال إذا مضى عليه حول ؛ لأن نفعها متعد ، ثم الصيام الذي يجب شهرا في السنة ، وهو عبادة بدنية نفعها غير متعد ، ثم الحج الذي لا يجب في العمر إلا مرة واحدة] .

الشرح..

هذه الأركان الخمسة وردت في الحديث مرتبة حسب الأهمية ، وأيضاً مرتبة حسب نزولها وفرضها على العباد لأن أول ما فُرض على النبي عليه الصلاة والسلام حين بُعث التوحيد ؛ فأنزل الله جل وعلا عليه ﴿ يَا أَيُّها المدَثِّر ۞ قُم فأنذِر ۞ورَبَّكَ فكبِّر۞ وثِيابَكَ فَطهِر ۞ والرُجزَ فاهجُر ﴾ ، ثم بقي الأمر على هذه الفريضة عشر سنوات . لم يفرض شيء آخر . ، وبعد عشر سنوات من فرض التوحيد فرضت الصلاة ، ثم بعد ذلك بخمس سنوات . السنة الثانية من الهجرة . فرضت الزكاة وفرض الصيام ، ثم بعد ذلك بخمس سنوات . في السنة التاسعة من الهجرة . فرض الحج ، فهذه الخمس المباني للإسلام مرتبة حسب أهميتها وحسب افتراضها على العباد ؛ والافتراض راجع للأهمية ، وأعظم هذه الأركان الشهادتان وبه بُدأ ، ثم يليه الصلاة وهي عمود الدين وأول ما يسأل عنه العبد يوم القيامة وهي عبادة بدنية ، ثم الزكاة وهو عبادة مالية ، ثم الصيام عبادة بدنية وهي سر بين العبد وبين الله جل وعلا ، ثم الحج وهو عبادة مالية بدنية تجب في العمر كله مرةً واحدة .

[أحد عشر: ورد في صحيح مسلم أن ابن عمر رضي الله عنهما حدَّث بحديث إنما سأله رجل فقال له ألا تغزو ثم ساق الحديث ؛ وفيه إشارة إلى أن الجهاد ليس من أركان الإسلام وذلك أن هذه الخمس لازمة باستمرار لكل مكلف ؛ بخلاف الجهاد فإنه فرض كفاية ولا يكون في كل

وقت] .

الشرح..

ابن عمر رضي الله عنهما في روايته لهذا الحديث مناسبة وهي أن قائلاً قال له : ألا تغزو ؟ – أي ألا تشارك بالغزو – فقال « بُني الإسلام على خمس » ؛ استدل بهذا الحديث على أن الجهاد ليس من أركان الإسلام ، وأن أركان الإسلام هي هذه الخمسة ، وأنه من فروض الكفاية ؛ أما هذه الخمس فهي مفروضة على الجميع وباستمرار في ضوء البيان السابق المتعلق بهذه الفرائض ، استدل ابن عمر بهذا الحديث على أن الجهاد ليس من أركان الإسلام وأن أركان الإسلام إنما هي هذه الخمس المذكورة في الحديث .

قال : [مما يستفاد من هذا الحديث :

أولاً : بيان أهمية هذه الخمس بكون الإسلام بُني عليها .

ثانياً : تشبيه الأمور المعنوية بالحسية لتقريبها للأذهان .

ثالثاً : البدء بالأهم فالأهم .

رابعاً : أن الشهادتين أساسٌ في نفسهما وهما أساس لغيرهما ؛ فلا يقبل عمل إلا إذا بني عليهما .

خامساً : تقديم الصلاة على غيرها من الأعمال لأنها صلة وثيقة بين العبد وبين ربه

والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على عبد الله ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .

..*